سـورة عبس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝﴾

فيه ست مسائل :

الأولى :قوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ أي: كلح بوجهه؛ يقال: عبس وبسر ، وقد تقدم ، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض بوجهه ﴿أَن جَاءَهُ﴾ ﴿أَن﴾ في موضع نصب لأنه مفعول له، المعنى لأن جاءه الأعمى، أي. الذي لا يبصر بعينيه ، فروى أهل التفسير أجمع: أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبد الله ابن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عبد الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية[1] ، قال مالك: إن هشام بن عروة حدثه عن عروة، أنه قال: نزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ في ابن أم مكتوم؛ جاء إلى النبي ﷺ فجعل يقول: يا محمد استدنني، وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: «يا فلان، هل ترى بما أقول بأسا »؟ فيقول: «لا والدُّمي[2] ما أرى بما تقول بأسا»؛ فأنزل الله﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾[3] ، وفي الترمذي مسندا قال: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، حدثني أبي، قال هذا ما عرضنا على هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قالت: نزلت: ﴿عبس وتولى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل، يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأسا» فيقول: لا؛ ففي هذا نزلت ؛ قال: هذا حديث غريب[4].

الثانية :الآية عتاب من الله لنبيه ﷺ في إعراضه وتوليه عن عبد الله بن أم مكتوم ، ويقال: عمرو ابن أم مكتوم، واسم أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة بن عامر بن مخزوم، وعمرو هذا: هو ابن قيس بن زائدة بن الأصم، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها ، وكان قد تشاغل عنه

---

(١)ذكره الواحدى (ص٣٨٥) في أسباب النزول،وانظر ما بعده .

(٢)الدُّمي: الأصنام.اللسان « دما».

(٣)انظر: التالي وهذه صورة إسناد صحيح وإن كان مرسلاً ، ولكن المصنف سيصله من رواية الترمذي ، وانظر: الموطأ حديث (٨) ـ باب (٤) ، من كتاب القرآن .

(٤) غريب: الترمذي (٣٣٣١) في التفسيروصححه الألباني، وإن كان الذهبي قد صوّب إرساله كما في تلخيص المستدرك (٢/ ٥١٤) .

برجل من عظماء المشركين، يقال :كان الوليد بن المغيرة ،[١] ابن العربي [٢]: قاله المالكية من علمائنا، وهو يكنى أبا عبد شمس ، وقال قتادة: هو أمية بن خلف وعنه: أبي بن خلف [٣]،وقال مجاهد: كانوا ثلاثة :عتبة وشيبة ابنا ربيعة ،وأبي بن خلف [٤] ،وقال عطاء عتبة بن ربيعة .سفيان الثوري: كان النبي ﷺ مع عمه العباس [٥]، الزمخشري [٦]:كان عنده صناديد قريش:عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم . قال ابن العربي[٧]: أما قول علمائنا: إنه الوليد بن المغيرة وقال آخرون: إنه أمية بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة، ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجرة، والآخر ببدر،ولم يقصد قط أمية المدينة، ولا حضر عنده مفردا، ولا مع أحد .

الثالثة : أقبل ابن أم مكتوم والنبي ﷺ مشتغل بمن حضره مَنْ وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوي طمعه في إسلامهم ،وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ابن أم مكتوم وهو أعمى فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد؛ فعبس وأعرض عنه، فنزلت الآية ، قال الثوري: فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول: «مرحبا بمن عاتبني فيه ربي» ، ويقول: «هل من حاجة»؟ واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما ، قال أنس: فرأيته يوم القادسية راكبا وعليه درع ومعه راية سوداء [٨].

الرابعة : قال علماؤنا: ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب ،لو كان عالما بأن النبي ﷺ مشغول بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصُفة؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيرا أصلح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعا في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضا نوعا من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٦٧]الآية على ما تقدم ، وقيل: إنما قصد النبي ﷺ تأليف الرجل، ثقة بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان؛ كما قال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، مخافة أن يكبه الله في النار على وجهه » [٩].

الخامسة : قال ابن زيد: إنما عبس النبي ﷺ لابن أم مكتوم وأعرض عنه؛ لأنه أشار إلى الذي

(١) هذه مراسيل : وإن كانت صحيحة. الطبري (٣٠/ ٥٤، ٥٥) في تفسيره .
(٢)أحكام القرآن (٤/ ١٩٠٥) لابن العربي المالكي .
(٣ ـ ٦) هذه مراسيل : وإن كانت صحيحة. الطبري (٣٠/ ٥٤، ٥٥) في تفسيره .
(٧)أحكام القرآن (٤/ ١٩٠٥) لابن العربي المالكي .
(٨) صحيح من طريق قتادة : عن أنس ـ رضي الله عنه ـ كما في مسند أبي يعلى (٥/ ٤٣١) .
(٩) متفق عليه: البخاري (٢٧) في الإيمان ، ومسلم (١٥٠) في الإيمان ، عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه .

كان يقوده أن يكفه، فدفعه ابن أم مكتوم، وأبي إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يعلمه، فكان في هذا نوع جفاء منه ، ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾[1] بلفظ الإخبار عن الغائب، تعظيما له ولم يقل: عبست وتوليت ، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيسا له فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: يعلمك ﴿لَعَلَّهُ﴾ يعني ابن أم مكتوم ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ بما استدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين، بأن يزداد طهارة في دينه، وزوال ظلمة الجهل عنه ، وقيل: الضمير في ﴿لَعَلَّهُ﴾ للكافر يعني إنك إذا طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذكر، فتقربه الذكرى إلى قبول الحق وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن ، وقرأ الحسن: « آن جاءك الأعمى » بالمد على الاستفهام فـ﴿ أن ﴾متعلقة بفعل محذوف دل عليه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ التقدير: آأن جاءه أعرض عنه وتولى؟ فيوقف على هذه القراءة على ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، ولا يوقف عليه على قراءة الخبر، وهي قراءة العامة.

السادسة : نظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكذلك قوله في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] وما كان مثله، والله أعلم.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ بما تقول ﴿فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: العظة ، وقراءة العامة « فَتَنْفَعُهُ» بضم[2] العين، عطفا على ﴿ يَزَّكَّىٰ ﴾ ،وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق وعيسى: ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ نصبا ، وهي قراءة السلمي وزر بن حبيش، على جواب لعل، لأنه غير موجب؛ كقوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [غافر: ٣٦] ثم قال : ﴿فَاطَّلَعَ﴾ [الصافات: ٥٥].

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ أي: كان ذا ثروة وغنى ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تعرض له، وتصغي لكلامه ، والتصدي: الإصغاء؛ قال الراعي:

تَصَدَّى لوضَّاحٍ كأنَّ جَبِينه سراجُ الدُّجَى يَحْنِي إليه الأساورُ

وأصله تتصدد من الصدد، وهو ما استقبلك، وصار قبالتك؛ يقال: داري صدد داره، أي: قبالتها، نصب على الظرف ، وقيل: من الصدى وهو العطش ، أي: تتعرض له كما يتعرض العطشان للماء، والمصاداة: المعارضة ،وقراءة العامة: ﴿ تَصَدَّىٰ ﴾بالتخفيف، على طرح التاء الثانية تخفيفا ، وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الإدغام[3]، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن، إنما أنت رسول، ما عليك إلا البلاغ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يطلب العلم لله ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي: يخاف الله ، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي: تعرض عنه بوجهك وتشغل بغيره ، وأصله تتلهى؛ يقال: لهيت عن الشيء ألهى، أي:

(١) حسن إليه :الطبري (٣٠/ ٥٤، ٥٥) في تفسيره .
(٢، ٣) قراءتان متواترتان :كما في تقريب النشر (ص١٨٦) .

تشاغلت عنه ، والتلهي: التغافل ، ولهيتُ عنه وتلهيتُ: بمعنى.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ﴾ كلمة ردع وزجر؛ أي: ما الأمر كما تفعل مع الفريقين؛ أي: لا تفعل بعدها مثلها: من إقبالك على الغني، وإعراضك عن المؤمن الفقير ، والذي جرى من النبي ﷺ كان ترك الأولى كما تقدم، ولو حمل على صغيرة لم يبعد؛ قاله القشيري ،والوقف على﴿كَلاَّ﴾ على هذا الوجه: جائز ، ويجوز أن تقف على﴿ تَلَهَّى﴾ [عبس: ١٠] تبتدئ :«كَلاَّ » على معنى حقا ،﴿إِنَّهَا﴾ أي: السورة أو آيات القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: موعظة وتبصرة للخلق﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي: اتعظ بالقرآن

قال الجُرجاني﴿إِنَّهَا﴾ أي: القرآن، والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة، أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذكره لجاز؛ كما قال تعالى في موضع آخر﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤)﴾[المدثر: ٥٤] ، ويدل على أنه أراد القرآن قوله: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي: كان حافظا له غير ناس؛ وذكر الضمير، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ ، وروى الضحاك عن ابن عباس (١) في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ قال: من شاء الله تبارك وتعالى ألهمه ، ثم أخبر عن جلالته فقال: ﴿فِي صُحُفٍ﴾ جمع صحيفة ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ أي: عند الله؛ قاله السدي. الطبري﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ في الدين لما فيها من العلم والحكم ، وقيل: ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ لأنها نزل بها كرام الحفظة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ ، وقيل: « مُكَرَّمَةٍ » لأنها نزلت من كريم؛ لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه ، وقيل: المراد كتب الأنبياء؛ دليله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ(١٩)﴾ [الأعلى] ،﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر عند الله ، وقيل: مرفوعة عنده تبارك وتعالى، وقيل: مرفوعة في السماء السابعة، قاله يحيى بن سلام ، الطبري: مرفوعة الذكر والقدر ، وقيل: مرفوعة عن الشبه والتناقض ،﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ قال الحسن: من كل دنس ، وقيل: مصانة عن أن ينالها الكفار ،وهو معنى قول السدي ، وعن الحسن أيضا: مطهرة من أن تنزل على المشركين ،وقيل: أي: القرآن أثبت للملائكة في صحف يقرؤونها فهي مكرمة مرفوعة مطهرة،﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي: الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، فهم بررة لم يتدنسوا بمعصية ،وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هي مطهرة تجعل التطهير لمن حملها ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ قال: كَتَبَة ،وقاله مجاهد أيضا (٢)،وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار، التي هي الكتب، واحدهم: سافر؛ كقولك: كاتب وكتبة ،ويقال: سفرت أي: كتبت، والكتاب: هو السفر، وجمعه أسفار.

قال الزجاج: وإنما قيل للكتاب سِفر، بكسر السين، وللكاتب سافر؛ لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه ، يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء، وسفرت المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها ، قال: ومنه سَفَرتُ بين القوم أسفِرُ سِفارة: أصلحت بينهم ،وقاله الفراء، وأنشد:

---

(١) منقطع : بين الضحاك وابن عباس رضي الله عنهما ،وانظر التالي .

(٢) ضعيف جدًا : أبو صالح كذاب فيما حدث به ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وانظر: بقية الأقوال عند ابن كثير (٨/ ٢٥١) في تفسيره .

فما أدَعُ السِّفارةَ بينَ قومي ولاَ أمْشِي بغِشٍّ إن مَشَيْتُ

والسفير: الرسول والمصلح بين القوم والجمع: سفراء، مثل فقيه وفقهاء، ويقال للوراقين سفراء، بلغة العبرانية، وقال قتادة: السفرة هنا: هم القراء، لأنهم يقرؤون الأسفار، وعنه أيضا كقول ابن عباس[١]، وقال وهب بن منبه: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ هم أصحاب النبي ﷺ، قال ابن العربي[٢]: لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ سفرة، كراما برة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية، ولا قاربوا المرادين بها، بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم، وروي في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة؛ ومثل الذي يقرؤه وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران» متفق عليه، واللفظ للبخاري[٣]، ﴿كِرَامٍ﴾ أي: كرام على ربهم؛ قاله الكلبي[٤]. الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسهم عنها[٥]، وروى الضحاك عن ابن عباس في ﴿كِرَامٍ﴾ قال: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته، أو تبرز لغائطه[٦]، وقيل: أي: يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم، ﴿بَرَرَةٍ﴾ جمع بار مثل كافر وكفرة، وساحر وسحرة، وفاجر وفجرة؛ يقال: بر وبار إذا كان أهلا للصدق، ومنه بر فلان في يمينه: أي: صدق، وفلان يبر خالقه ويتبرره: أي: يطيعه؛ فمعنى ﴿بَرَرَةٍ﴾ مطيعون لله، صادقون لله في أعمالهم، وقد مضى في سورة الواقعة قولة تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة] أنهم الكرام البررة في كتاب مكنون، ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة] أنهم الكرام البررة في هذه السورة.

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾؟ ﴿قُتِلَ﴾ أي: لعن، وقيل: عذب، والإنسان: الكافر، روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ﴾ فإنما عني به الكافر[٧]، وروى الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت في عتبة بن أبي لهب، وكان قد آمن، فلما نزلت «والنجم» ارتد، وقال: آمنت بالقرآن كله إلا النجم، فأنزل الله جل ثناؤه فيه[٨]: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ﴾ أي: لعن عتبة حيث كفر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهم سلط عليه كلبك أسد الغاضرة»[٩]

---

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ٥٧) في تفسيره.

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٩٠٦) لابن العربي المالكي.

(٣) متفق عليه: البخاري (٤٩٣٧) في التفسير، ومسلم (٧٩٨) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٤، ٥) انظر: تفسير الماوردي (٤/ ٢٨٤)، وفتح القدير (٧/ ٤٢٠) للشوكاني.

(٦) منقطع: بين الضحاك وابن عباس رضي الله عنهما وانظر بعد التالي.

(٧) ولعل الأعمش هنا قد دلس لأنه لم يصرح بالتحديث.

(٨) منقطع بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما: ورواه السيوطي (ص٤٤٩) من طريق عكرمة مرسلاً كما في لباب النقول.

(٩) الغاضرة: قرية ناحية الكوفة قريبة من كربلاء. معجم البلدان (٤/ ٢٠٧).

فخرج من فوره بتجارة إلى الشام، فلما انتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي ﷺ، فجعل لمن معه ألف دينار إن هو أصبح حيا، فجعلوه في وسط الرفقة، وجعلوا المتاع حوله، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد، فلما دنا من الرحال وثب، فإذا هو فوقه فمزقه، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال: ما قال محمد شيئا قط إلا كان [١]، روى أبو صالح عن ابن عباس ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾: أي: شيء أكفره [٢]؟ وقيل «ما» تعجب؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتله الله ما أحسنه! وأخزاه الله ما أظلمه؛ والمعنى: اعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا، وقيل: ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضا؛ قال ابن جريج: أي: ما أشد كفره [٣]! وقيل: ﴿مَا﴾ استفهام أي: أي: شيء دعاه إلى الكفر؛ فهو استفهام توبيخ، و«ما» تحتمل التعجب، وتحتمل معنى «أي»، فتكون استفهاما.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: من أي: شيء خلق الله هذا الكافر فيتكبر؟ أي: اعجبوا لخلقه، ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من ماء يسير مهين جماد ﴿خَلَقَهُ﴾ فلم يغلظ في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين، ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ في بطن أمه، كذا روى الضحاك عن ابن عباس: أي: قدر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه، وحسنا ودميما، وقصيرا وطويلا، وشقيا وسعيدا [٤]، وقيل: ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي: فسواه كما قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾﴾، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾ [الانفطار: ٧]، وقيل ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أطوارا، أي: من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقة، إلى أن تم خلقه، ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء وقتادة والسدي ومقاتل: يسره للخروج من بطن أمه [٥]. مجاهد: يسره لطريق الخير والشر؛ أي: بين له ذلك [٦]، دليله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ و﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، وقاله الحسن وعطاء وابن عباس أيضا في رواية أبي صالح عنه [٧]، وعن مجاهد أيضا قال: سبيل الشقاء والسعادة [٨]، ابن زيد: سبيل الإسلام [٩]، وقال أبو بكر بن طاهر يسر على كل أحد ما خلقه له وقدره عليه؛ دليله قوله عليه السلام: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» [١٠].

---

(١) هذه القصة رويت بأسانيد ضعاف فقد رواها الحاكم (٢/ ٥٣٩) بسند واهٍ من طريق العباس بن الفضل وهو ضعيف، ورواه الطبراني (٢٢/ ٣٥) مرسلاً عن قتادة مرسلاً من طريق زهير بن العلاء وهو ضعيف، ورواه ابن كثير (٤/ ٢٢١) من طريق هبّار بن الأسود، وعزاه لابن عساكر.

(٢) ضعيف: أبو صالح طريقه إلى ابن عباس طريق الكذب.

(٣) مرسل عن ابن جريج.

(٤) منقطع: بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٥) الإسناد إلى ابن عباس ضعيف فقد روى من طريق العوفيين، وصحيح إلى عطاء، وقتادة والسدى كما في تفسير الطبري (٣٠/ ٥٩).

(٦) بل قول مجاهد: الشقاء والسعادة.

(٧) ضعيف إلى ابن عباس: وقول الحسن صحيح إليه، وانظر: الطبري (٣٠/ ٥٩) في تفسيره.

(٨) صحيح: الطبري (٣٠/ ٥٩).

(٩) صحيح إليه: السابق (٣٠/ ٥٩).

(١٠) متفق عليه: البخاري (٤٩٤٥) في التفسير، ومسلم (٢٦٤٧) في القدر كلاهما عن علي ـ رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي: جعل له قبرا يواري فيه إكراما، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي؛ قاله الفراء، وقال أبو عبيدة: ﴿ أَقْبَرَهُ ﴾: جعل له قبرا، وأمر أن يقبر، قال أبو عبيدة: ولما قتل عمر بن هبيرة صالح بن عبد الرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أقبرنا صالحا؛ فقال: دونكموه، وقال: ﴿ أَقْبَرَهُ ﴾ ولم يقل قبره؛ لأن المقابر هو الدافن بيده، قال الأعشى:

لو أسندتْ مَيْتا إلى نحرِها عاشَ ولم يُنقَلْ إلى قابرِ

يقال: قبرت الميت: إذا دفنته، وأقبره الله: أي: صيره بحيث يقبر، وجعل له قبرا؛ تقول العرب: بترت ذنب البعير، وأبتره الله، وعضبت قرن الثور، وأعضبه الله، وطردت فلانا، والله أطرده، أي: صيره طريدا، ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي: أحياه بعد موته، وقراءة العامة ﴿ أَنشَرَهُ﴾ بالألف، وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة «شاء نشره» بغير ألف، لغتان فصيحتان بمعنى؛ يقال: أنشر الله الميت ونشره؛ قال الأعشى:

حَتى يَقولَ النَّاسُ مما رأَوا يَا عَجَبَا للميتِ النَّاشرِ

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ قال مجاهد وقتادة: ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾: لا يقضي أحد ما أمر به[1]، وكان ابن عباس يقول: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾لم يف بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم[2]، ثم قيل: ﴿كَلاَّ ﴾ ردع وزجر، أي: ليس الأمر كما يقول الكافر؛ فإن الكافر إذا أخبر بالنشور وقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[فصلت: ٥٠] ربما يقول: قد قضيت ما أمرت به[3]، فقال: كلا لم يقض شيئا بل هو كافر بي وبرسولي، وقال الحسن: أي: حقا لم يقض، أي: لم يعمل بما أمر به، و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿ لَمَّا﴾ عماد للكلام؛ كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾[المؤمنون: ٤٠]، وقال الإمام ابن فورك: أي: كلا لما يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقض له به. ابن الأنباري: الوقف على ﴿كَلاَّ﴾ قبيح، والوقف على ﴿أَمَرَهُ﴾ و﴿أَنشَرَهُ﴾ جيد؛ فـ «كَلاَّ» على هذا بمعنى حقا.

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان، ذكر ما يسر من رزقه؛ أي: فلينظر كيف خلق الله طعامه، وهذا النظر نظر القلب بالفكر؛ أي: ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذي هو قوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، ليستعد بها للمعاد، وروي عن الحسن ومجاهد قالا: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ أي: إلى مدخله ومخرجه[4]، وروى ابن أبي خيثمة عن

(١) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠/ ٦٠)، ورواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٨/ ٢٥٣).
(٢) انظر: تفسير اللباب (١٦/ ٢٣٠) لابن عادل.
(٣) عزاه ابن كثير (٨/ ٢٥٣) للبغوي.
(٤) كذا في تفسير البغوي (٨/ ٣٣٨)، وفتح القدير (٧/ ٤٢١) للشوكاني.

الضحاك بن سفيان الكلابي قال: قال لي النبي ﷺ: «**يا ضحاك ما طعامك ؟**» قلت: يا رسول الله! اللحم واللبن؛ قال: «ثم يصير إلى ماذا» قلت إلى ما قد علمتهُ؛ قال: «**فإن الله** ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا» (١) ،وقال أبي بن كعب: قال النبي ﷺ: « إن مَطعم ابن آدم جعل مثلا للدنيا وإن قزحه وملحه ،فانظر إلى ما يصير» (٢) ،وقال أبو الوليد: سألت ابن عمر عن الرجل يدخل الخلاء فينظر ما يخرج منه؛ قال: يأتيه الملك فيقول: أنظر ما بخلت به إلى ما صار؟ (٣) .

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ قراءة العامة «إناء» بالكسر ، على الاستئناف (٤)، وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب ﴿أَنَّا﴾ بفتح الهمزة ،فـ﴿أَنَّا﴾ في موضع خفض على الترجمة عن الطعام، فهو بدل منه؛ كأنه قال: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ إلى «**أَنَّا صَبَبْنَا** » **فلا يحسن الوقف على ﴿طَعَامِهِ﴾ من** هذه القراءة، وكذلك إن رفعت ﴿أَنَّا﴾ إضمار هو أنا صببنا؛ لأنها في حال رفعها مترجمة عن الطعام، وقيل: المعنى: لأنا صببنا الماء، فأخرجنا به الطعام، أي: كذلك كان ، وقرأ الحسين بن علي: « أنّي» ممال، بمعنى كيف؟ فمن أخذ بهذه القراءة قال: الوقف على «طعامه» تام ، ويقال: معنى «أنّي» أين، إلا أن فيها كناية عن الوجوه؛ وتأويلها: من أي وجه صببنا الماء؛ قال الكميت:

أَنَّى ومِنْ أينَ آبكَ الطَّرَبُ من حيثُ لا صَبْوةٌ ولا رِيبُ

﴿صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾: يعني الغيث والأمطار ، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ أي: بالنبات ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: قمحا وشعيرا وسلتا وسائر ما يقصد ويدخر ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهو القت والعلف، عن الحسن: سمو بذلك لأنه يقضب، أي: يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة ، قاله القتبي وثعلب. **وأهل مكة** يسمون القت القضب ، وقال ابن عباس: هو الرطب لأنه يقضب من النخل، ولأنه ذكر العنب قبله (٥) ، وعنه أيضا: أنه الفصفصة وهو القت الرطب (٦) ، وقال الخليل: القضب الفِصْفِصَة الرطبة، وقيل: بالسين، فإذا يبست فهو قت ،قال: والقضب: اسم يقع على ما يقضب من أغصان الشجرة، ليتخذ منها سهام أو قسي ، ويقال: قضبا، يعني جميع ما يقضب، مثل القت والكراث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها ، وفي« الصحاح»: والقضبة والقضب الرطبة، وهي الإسْفِسْتُ بالفارسية، والموضع الذي تنبت فيه مقضبة ،﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهي شجرة الزيتون﴿وَنَخْلًا﴾ يعني النخيل

---

(١) في إسناده ضعف :أحمد (٣/ ٤٥٢) في المسند ، والطبراني (٨/ ٢٩٩) في الكبير ، وقال الهيثمي (١٠/ ٢٨٨) في المجمع ،«رواه أحمد والطبراني ،ورجال الطبراني رجال الصحيح غير علي بن زيد بن جدعان وقد وثق».
قلت :بَلْ هو ضعيف وله مناكير .

(٢) حسن :أحمد (٥/ ١٣٦) في المسند ، وابن حبان (٧٠٢) في صحيحه ،والمعنى :(تويله من القزح وهو التابل الذي يطرح في القدر كالكمون ، والكزبرة ، ونحو ذلك ، والمعنى أن المطعم وإن تكلّف الإنسان التفوق في صنعته، وتطييبه ،وإنه عائد إلى حال يكره ويستقذر ، فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها ونظم أسبابها ، راجعة إلى خراب وإدبار النهاية (٤/ ٥٨) لابن الأثير .

(٣)تفسير البغوي (١٩/ ٢٢٠) .

(٤) قراءة متواترة :كما في تقريب النشر (ص١٨٦) .

(٥)انظر: تفسير الآلوسي (٢٢/ ١٩٣) ، والبحر المحيط (١٠/ ٤٣٧) لابن حيان .

(٦) منقطع :بين علي بن أبي طلحة وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كما في تفسير الطبري (٣٠/ ٦١).

﴿وَحَدَائِقَ﴾ أي: بساتين وأحدها حديقة ، قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة، وما لم يحط عليه فليس بحديقة ،﴿غُلْبًا﴾ عظاما شجرها؛ يقال: شجرة غلباء، ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنه مصمت العنق، لا يلتفت إلا جميعا؛ قال العجاج:

ما زِلتُ يوم البَيْن ألوي صَلَبي والرأسَ حتى صِرتُ مِثْلَ الأغْلَبِ

ورجل أغلب بَيِّنُ الغلب إذا كان غليظ الرقبة ، والأصل في الوصف بالغلب: الرقاب فاستعير؛ قال عمرو بن معدي كرب:

يَمشِي بها غُلْب الرِّقَابِ كأنَّهم بُزْل كُسِين من الكُحَيْلِ جِلالا

وحديقة غلباء: ملتفة، وحدائق غلب ، واغلولب العشب: بلغ والتف البعض بالبعض.

قال ابن عباس: الغلب: جمع أغلب وغلباء وهي الغلاظ [١] ، وعنه أيضا الطوال [٢] . قتادة وابن زيد: الغلب: النخل الكرام [٣] ، وعن ابن زيد أيضا وعكرمة: عظام الأوساط والجذوع[٤] ، مجاهد: ملتفة [٥] ، ﴿وَفَاكِهَةً﴾ أي: ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخوخ وغيرهما ﴿وَأَبًّا﴾ هو ما تأكله البهائم من العشب، قال ابن عباس والحسن: الأب: كل ما أنبتت الأرض، مما لا يأكله الناس،وما يأكله الآدميون هو الحصيدة [٦]؛ ومنه قول الشاعر في مدح النبي ﷺ:

لَه دَعْوة ميْمونة ريحها الصبَّا بها يُنبتُ الله الحصيدة والأبَّا

وقيل: إنما سمي أبا؛ لأنه يؤب أي: يوم وينتجع ، والأب والأم: أخوان؛ قال:

جِذمنا قيسٌ ونجدٌ دارنا ولنا الأبُّ بِهِ والمكْرَعِ

وقال الضحاك: والأب: كل شيء ينبت على وجه الأرض [٧] ، وكذا قال أبو رزين: هو النبات [٨] ، يدل عليه قول ابن عباس قال: الأب: ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام [٩] ، وعن ابن عباس أيضا وابن أبي طلحة: الأب: الثمار الرطبة [١٠] ، وقال الضحاك: هو التبن خاصة[١١] ، وهو محكي عن ابن عباس أيضا؛ قال الشاعر:

فما لهُمْ مُرْتَعٌ للسَّوا م والأبُّ عندهُمْ يُقْدَرَ

الكلبي: هو كل نبات سوى الفاكهة ، وقيل: الفاكهة: رطب الثمار، والأب يابسها.

(١ ، ٢) منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس : الطبري (٣٠/ ٦٢) في تفسيره .

(٣ ، ٤) صحيح إليهما : الطبري (٣٠/ ٦٢) في تفسيره .

(٥) صحيح إلى مجاهد : الطبري (٣٠ / ٦٢) في تفسيره

(٦) حسن : الطبري (٣٠/ ٦٣) ، وفي إسناده إلى الحسن البصري مبارك بن فضالة ، وهو مدلس وقد عنعنه عن الحسن .

(٧) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٥٤١) .

(٨) كذا عند الطبري بسند صحيح (٣٠/ ٦٤) في تفسيره .

(٩) حسن إلى ابن عباس : الطبري (٣٠/ ٦٣) في تفسيره .

(١٠) منقطع بينهما وانظر: السابق .

(١١) صحيح : وقد سبق قريباً.

وقال إبراهيم التيمي: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأب فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم (١).

وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا بن أم عمر ألا تدري ما الأب؟ ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه (٢)، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «خلقتم من سبع، ورزقتم من سبع، فاسجدوا لله على سبع» (٣)، وإنما أراد بقوله: «خلقتم من سبع» يعني: ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٥] الآية، والرزق من سبع، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ ثم قال: ﴿وَأَبًّا﴾ وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم، وأنه مما تختص به البهائم، والله أعلم، ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾ نصب على المصدر المؤكد، لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات، وهذا ضرب مثل ضربه الله تعالى لبعث الموتى من قبورهم، كنبات الزرع بعد دثوره، كما تقدم بيانه في غير موضع، ويتضمن امتنانا عليهم بما أنعم به، وقد مضى في غير موضع أيضا.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق مما أمتن به عليهم، والصاخة: الصيحة التي تكون عنها القيامة، وهي النفخة الثانية، تصخ الأسماع: أي: تصمها فلا تسمع إلا ما يدعى به للأحياء، وذكر ناس من المفسرين قالوا: تصيخ لها الأسماع، من قولك: أصاخ إلى كذا، أي: استمع إليه، ومنه الحديث: «ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة شفقا من الساعة إلا الجن والإنس» (٤)، وقال الشاعر:

يُصيخُ للنَّبأة أسْمَاعهُ إصاخةَ النَّاشد للمُنْشد

قال بعض العلماء: وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء، فأما اللغة فمقتضاها القول الأول، قال الخليل: الصاخة: صيحة تصخ الآذان صخا أي: تصمها بشدة وقعتها، وأصل الكلمة في اللغة:

(١) صحيح: بين إبراهيم التيمى وأبي بكر ـ رضي الله عنه، وفيه العوام بن حوشب وهو مختلف فيه، وانظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٥٤).

(٢) صحيح: الطبري (٣٠/ ٦٥، ٦٦) في تفسيره، وصححه ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢٥٤)، وقال: «فهو إسناد صحيح».

(٣) هذا من قول ابن عباس بسند حسن من طريق عاصم بن كليب، عن أبيه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما وليس من قوله ﷺ. وانظر السابق

(٤) صحيح: أبو داود (١٠٤٦) فى الصلاة، والنسائي (٣/ ٢١٣) فى الجمعة، وأحمد (٢/ ٤٨٦) فى السند وصححه الألبانى عند أصحاب السنن.

الصك الشديد ، وقيل: هي مأخوذة من صخه بالحجر: إذا صكه، قال الراجز:

يا جارتي هل لك أن تجالدي جلادة كالصَّك بالجَلامد

ومن هذا الباب قول العرب: صختهم الصاخة وباقتهم الباثقة، وهي الداهية. الطبري [١]: وأحسبه من صخ فلان فلانا: إذا أصماه ، قال ابن العربي [٢]: الصاخة التي تورث الصمم، وإنها لمسمعة، وهذا من بديع الفصاحة، حتى لقد قال بعض حديثي الأسنان حديثي الأزمان:

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وإِنْ كَان أَسْمَعا

وقال آخر:

أَصَمَّنِي سِرُّهم أيامَ فُرقتهم فهل سمعتم بسر يُورث الصَّمَما

لعمر الله إن صيحة القيامة لمسمعة تصم عن الدنيا، وتسمع أمور الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ أي: يهرب، أي: تجيء الصاخة في هذا اليوم الذي يهرب فيه من أخيه؛ أي: من موالاة أخيه ومكالمته؛ لأنه لا يتفرغ لذلك،لاشتغاله بنفسه؛ كما قال بعده: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: يشغله عن غيره ،وقيل: إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه، لما بينهم من التبعات ، وقيل: لئلا يروا ما هو فيه من الشدة ، وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئا؛كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ [الدخان: ٤١] ، وقال عبد الله بن طاهر الأبهري: يفر منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم، إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه،ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئا سوى ربه تعالى.

﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ أي: زوجته. ﴿وَبَنِيهِ﴾ أي: أولاده .

وذكر الضحاك عن ابن عباس قال: يفر قابيل من أخيه هابيل، ويفر النبي ﷺ من أمه، وإبراهيم عليه السلام من أبيه، ونوح عليه السلام من ابنه، ولوط من امرأته، وآدم من سوأة بنيه [٣] ،وقال الحسن: أول من يفر يوم القيامة من أبيه: إبراهيم، وأول من يفر من ابنه نوح؛ وأول من يفر من امرأته لوط ، قال: فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ [٤] ،﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ، في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول ﷺ يقول: « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا» قلت: يا رسول الله! الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: « يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» [٥] ، خرجه الترمذي ، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: « يحشرون حفاة عراة غرلا» فقالت امرأة: أينظر بعضنا، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ، قال: حديث حسن صحيح [٦] ، وقراءة العامة بالغين المعجمة؛ أي: حال يشغله عن الأقرباء ، وقرأ ابن محيصن وحميد: «يَعنِيه» بفتح

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ٦٥) .

(٢) لم أجده في أحكام القرآن .

(٣) منقطع : بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما وانظر التالي.

(٤) هذا مرسل : ورواه ابن عساكر ،عن الحسن كما في الدر المنثور (٦/ ٥٢٣) .

(٥) صحيح : مسلم (٢٨٥٩/ ٥٦) في الجنة وصفة نعيمها .

(٦) حسن صحيح : الترمذي (٣٣٣٢) في التفسير،وصححه الألباني هناك .

الياء، وعين غير معجمة؛ أي: يعنيه أمره ،وقال القتبي: يغنيه: يصرفه ويصده عن قرابته،ومنه يقال: أغن عني وجهك، أي: اصرفه وأغن عني السفيه؛ قال خفاف:

سيغنيك حربٌ بني مَالك عَنِ الفُحْش والجهلِ فِي المَحْفَلِ

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي: مشرقة مضيئة، قد علمت مالها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين، ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ أي: مسرورة فرحة ، ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾: أي: بما آتاها الله من الكرامة ، وقال عطاء الخراساني ﴿ مُّسْفِرَةٌ ﴾من طول ما اغبرت في سبيل الله جل ثناؤه ، ذكره أبو نعيم (١) ، الضحاك: من آثار الوضوء (٢) ، ابن عباس: من قيام الليل؛ لما روي في الحديث: « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» (٣) يقال: أسفر الصبح إذا أضاء ، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: غبار ودخان ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تغشاها ﴿ قَتَرَةٌ﴾ أي: كسوف وسواد ، كذا قال ابن عباس ، وعنه أيضا: ذلة وشدة ، والقتر في كلام العرب: الغبار،جمع القترة، عن أبي عبيدة؛ وأنشد الفرزدق:

مُتَوَّجٌ بِرِداء الملكِ يَتْبعه مَوجٌ ترى فوقه الرايات والقَتَرا

وفي الخبر: إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيامة ،حول ذلك التراب في وجوه الكفار ، وقال زيد بن أسلم: القترة: ما ارتفعت إلى السماء، والغبرة: ما انحطت إلى الأرض (٤)، والغبار والغبرة: واحد ، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ﴾ جمع كافر، ﴿ الْفَجَرَةُ﴾ جمع فاجر، وهو الكاذب المفتري على الله تعالى، وقيل: الفاسق؛ يقال: فجر فجورا، أي: فسق، وفجر، أي: كذب ، وأصله: الميل، والفاجر: المائل. وقد مضى بيانه والكلام فيه، والحمد لله وحده .

---

(١) ضعيف : حلية الأولياء (٥/ ٢٠٠) لأبي نعيم، وفيه ضرار بن عمرو : ضعيف.

(٢) كذا عند الآلوسي (٢٢/ ٢٠٣) في تفسيره ، والشوكاني (٧/ ٤٢٣) في فتح القدير .

(٣) ضعيف : ابن ماجه (١٣٣٣) في إقامة الصلاة ،وضعفه الألباني هناك ، عن جابر ـ رضي الله عنه .

(٤) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٦٥، ٦٦) ، والبحر المحيط (١٠/ ٤٣٨) .